

رَحْمَةُ النَّبِيِّ ﷺ بِالْخَدَمِ وَالْمُسْتَضْعِفِينَ

بقلم: أ.د. عادل بن علي الشدي

لَقَدْ كَانَ الْخَدَمُ وَالْعَبِيدُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ لَا حُقُوقَ لَهُمْ وَلَا كَرَامَةَ، فَلَمَّا أكرمَ اللهُ الدُّنْيَا بِرِسَالَةِ الْإِسْلَامِ، رَفَعَ النَّبِيُّ ﷺ الظُّلْمَ عَن هَؤُلَاءِ، وَقَرَّرَ لَهُمْ حُقُوقَهُمْ وَتَهَدَّدَ مَنْ ظَلَمَهُمْ أَوْ انْتَقَصَهُمْ أَوْ لَعَنَهُمْ بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ.

فَعَنِ الْمَعْرُورِ بْنِ سُويِدٍ قَالَ: رَأَيْتُ أَبَا ذَرٍّ وَعَلِيَهُ حُلَّةٌ، وَعَلَى غُلَامِهِ مِثْلُهَا - أَيُّ أَنَّهُ يَلْبَسُ مِثْلَ مَا يَلْبَسُ خَادِمَهُ وَمَمْلُوكَهُ - قَالَ: فَسَأَلْتُهُ عَنِ ذَلِكَ، فَذَكَرَ أَنَّهُ سَابَّ رَجُلًا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَغَيَّرَهُ بِأَمِّهِ، فَأَتَى الرَّجُلَ النَّبِيَّ ﷺ، فَذَكَرَ لَهُ ذَلِكَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ؛ إِخْوَانُكُمْ خَوْلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَحْوَهُ تَحْتَ يَدَيْهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيَلْبَسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ، فَأَعِينُوهُمْ عَلَيْهِ" [متفق عليه].

فَانظُرْ كَيْفَ جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ الْخَادِمَ بِمَنْزِلَةِ الْأَخِ، لِيَسْتَقَرَّ فِي قَلْبِ الْمُسْلِمِ أَنَّهُ إِذَا ظَلَمَ هَذَا الْخَادِمَ أَوْ أَسَاءَ إِلَيْهِ، أَوْ أَكَلَ مَالَهُ، فَإِنَّمَا هُوَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مَعَ أَحَبِّهِ، ثُمَّ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْمُبَالَغَةِ فِي الْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ وَالرَّفْقِ بِهِمْ، وَإِكْرَامِهِمْ وَإِطْعَامِهِمْ وَإِلْبَاسَهُمْ مِنْ جِنْسِ مَا يَأْكُلُ وَيَلْبَسُ الْمَخْدُومُ، وَلِذَلِكَ فَقَدْ كَانَ أَبُو ذَرٍّ ﷺ يَلْبَسُ خَادِمَهُ حُلَّةً مِنْ جِنْسِ مَا يَلْبَسُ. وَكَذَلِكَ نَهَى النَّبِيُّ ﷺ فِي هَذَا الْحَدِيثِ عَنِ تَكْلِيفِ الْخَادِمِ بِمَا لَا يُطَاقُ مِنَ الْأَعْمَالِ وَهَذَا يَتَضَمَّنُ التَّخْفِيفَ عَنْهُمْ وَإِعْطَاءَهُمْ مَا يَكْفِيهِمْ مِنْ سَاعَاتِ الرَّاحَةِ.

- وَعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ: كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي بِالسَّوْطِ، فَسَمِعْتُ مِنْ خَلْفِي صَوْتًا: "اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ!" فَلَمْ أَفْهَمْ الصَّوْتَ مِنَ الْغَضَبِ. قَالَ: فَلَمَّا دَنَا مِنِّي، إِذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَإِذَا هُوَ يَقُولُ: "اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ!" قَالَ: فَأَلْقَيْتُ السَّوْطَ مِنْ يَدِي. قَالَ: "اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلَامِ" قُلْتُ: لَا أَضْرِبُ مَمْلُوكًا بَعْدَهُ أَبَدًا.

وَفِي رِوَايَةٍ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: هُوَ حَرٌّ لِرُؤُوسِهِ اللهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ، لَلْفَحْتِكَ النَّارَ" - أَوْ لَمَسْتِكَ النَّارَ - [رواه مسلم].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "مَنْ لَطَمَ مَمْلُوكًا لَهُ أَوْ ضَرَبَهُ، فَكَفَّارَتُهُ أَنْ يَعْتِقَهُ" [رواه أبو داود وصححه الألباني].

فَالنَّبِيُّ ﷺ هُوَ الَّذِي أَنْقَذَ الضُّعْفَاءَ، وَأَعْتَقَ الْعَبِيدَ، وَأَنْصَفَ الْخَدَمَ، وَوَقَفَ فِي صِفِّ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ، فَجُبِرَ كَسْرُهُمْ، وَأَنْعَشَ أَفْئِدَتَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ.

وَعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ سُؤَيْدِ بْنِ مُقَرِّنٍ قَالَ: لَطَمْتُ مَوْلَى لَنَا، فَدَعَاهُ أَبِي وَدَعَانِي. فَقَالَ: اقْتَصِرْ مِنْهُ، فَإِنَّا مَعَشَرُ بَنِي مُقَرِّنٍ، كُنَّا سَبْعَةً عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَيْسَ لَنَا إِلَّا خَادِمٌ، فَلَطَمَهَا رَجُلٌ مِنَّا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَعْتِقُوهَا" قَالُوا: كَيْسَ لَنَا خَادِمٌ غَيْرُهَا. قَالَ: "فَلْتَخُدِمُهُمْ حَتَّى يَسْتَغْنُوا، فَإِذَا اسْتَغْنُوا فَلْيَعْتِقُوها" [رواه مسلم].

هَذَا هُوَ نَبِينَا مُحَمَّدٌ ﷺ، وَهَذِهِ هِيَ مَوَاقِفُهُ مَعَ الْخَدَمِ وَالْعَبِيدِ، فَأَيْنَ أَوْلِيكَ الَّذِينَ يَظْلِمُونَ الْإِنْسَانَ مِنْ هَذِهِ الْمَوَاقِفِ؟

وَأَنْظُرْ إِلَى نَمُودَجِ عَمَلِيٍّ فِي مُعَامَلَةِ النَّبِيِّ ﷺ لِلْخَادِمِ، فَقَدْ قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ: خَدَمْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ. وَاللَّهِ مَا قَالَ لِي أَفَّ قَطُّ، وَلَا قَالَ لشيءٍ فَعَلْتُهُ لَمْ فَعَلْتُهُ، وَلَا لشيءٍ لَمْ أَفْعَلْهُ: أَلَا فَعَلْتَ كَذَا؟" [متفق عليه].
وَفِي لَفْظٍ: "وَلَا عَابَ عَلَيَّ شَيْئًا قَطُّ" [رواه مسلم].

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لِلْخَادِمِ: "أَلَيْكَ حَاجَةٌ؟" [رواه أحمد وصححه الألباني].

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: إِذَا كَانَتِ الْأُمَّةُ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لِتَأْخُذَ بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَمَا تَنْزِعُ يَدَهُ مِنْ يَدِهَا، حَتَّى تَذْهَبَ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ مِنَ الْمَدِينَةِ فِي حَاجَتِهَا" [رواه ابن ماجه وصححه الألباني].

الأمين العام المساعد

لرابطة العالم الإسلامي